

فرانسيس فوكوياما وأطروحته حول نهاية التاريخ: مقاربة إبستمولوجية

Francis Fukuyama and his idea about the end of history: an epistemological approach

جمال الدين بن عمير^{*}، جامعة المسيلة – محمد بوضياف

Djamel Eddine benamier, University of M'sila

djameleddine.benamier@univ-msila.dz

تاريخ النشر: 2021/12/30

تاريخ القبول: 2021/11/29

تاريخ الاستلام: 2021/10/21

ملخص:

يهدف هذا المقال إلى إجراء مقارنة إبستمولوجية لأطروحة (فرانسيس فوكوياما) حول كتاب "نهاية التاريخ والإنسان الأخير" المؤلف عام 1992، من خلال تحليل للمضامين الفكرية التي وظّفها لإثبات زعمه بوصول الإنسانية إلى الغاية النهائية بعد انتصار الديمقراطية الليبرالية الحديثة على مختلف الأيديولوجيات الأخرى على غرار الشيوعية والفاشية والديكتاتوريات الأخرى، حيث تقوم هذه المقاربة الأ إبستمولوجية على تحديد الفكرة الأساسية لطرح (فوكوياما)، ثم تعريفًا بصاحب الكتاب لفهم توجّهاته وخلفياته، واستنباط نظريته التي جسّدها في الكتاب ونقد أطروحته.

كلمات مفتاحية: فرانسيس فوكوياما، نهاية التاريخ، الديمقراطية الليبرالية، الرأسمالية.

Abstract:

This article aims to take an epistemological approach to Francis Fukuyama's proposition on the book "The End of History and the Last Man", written in 1992, through an analysis of the intellectual implications he used to prove his claim according to which humanity reached the end after the victory of modern liberal democracy over various other ideologies such as Communism, Fascism and other dictatorships, where this epistemological approach is based on the definition of the basic idea of Fukuyama, then introducing the author of the book to understand his tendencies and background, get his theory that he embodied in the book, and critique his ideas.

Keywords: Francis Fukuyama, the end of history, liberal democracy, capitalism.

● مقدمة

على إثر بروز بوادر نهاية الحرب الباردة في النصف الثاني للثمانينيات من القرن الماضي، وتوجّه دول العالم نحو نظام عالمي جديد وتحول معظمها نحو النظام الليبرالي الديمقراطي، لاحت في الأفق أطروحات كثيرة تدافع على شرعية الليبرالية والديمقراطية ونظام اقتصاد السوق كمضامين فكرية قامت عليها العولمة مع بداية التسعينيات، صاحبه تطور في التكنولوجيات الحديثة في مجال الاتصالات والمعلوماتية والإعلام، كان له الأثر في الانتشار الواسع لفكر العولمة والأطروحات الليبرالية، وكان من بين المفكرين الذين ساهموا في ذلك المفكر الياباني الأصل والأمريكي الجنسية (فرانسيس فوكوياما Francis Fukuyama)، فقد أصدر كتاباً يحمل عنوان: "نهاية التاريخ وخاتم البشر The end of history and the last man"، طرح من خلاله فكرة حول شرعية الليبرالية والديمقراطية الحديثة في مقابل الأيديولوجيات المنافسة التي انهمزت كالديكتاتورية والشمولية والشيوعية، وهو ما يشكّل نقطة النهاية في التطور الأيديولوجي للإنسانية والصورة النهائية لنظام الحكم البشري، وبالتالي وصول التاريخ إلى غاياته ونهايته كمسار تقدمي في اتجاه أهداف تمّ تحقيقها، حيث صاغ زعمه هذا على ثلاث أسس: الأول مادي والثاني حضاري والثالث معنوي، وقد أثار كتابه الكثير من الجدل، على الرغم من تراجعه عن الكثير من آرائه وأفكاره فيما بعد.

الإشكالية:

على ضوء الأفكار التي طرحها فوكوياما وروّج لها الغرب الليبرالي والانتشار الواسع لفكر العولمة القائم على هذه التوجّهات، يثار سؤال حول الخلفية الفكرية والفلسفية التي قدّمها (فوكوياما)؟ وأيّ خلفيات سياسية وراء أطروحته حول نهاية التاريخ والإنسان الأخير؟
لمعالجة هذه الإشكالية نطرح مجموعة من الأسئلة الفرعية التالية:
من هو فرانسيس فوكوياما؟ ما هي الفكرة الأساسية التي تناولها حول نهاية التاريخ والإنسان الأخير؟ ما هي النظرية التي يجسدها طرح (فوكوياما)؟ وما تقيّمات أفكاره التي دافع عنها المفكر وروّج لها الغرب بصفة عامة والأمريكيون بصفة خاصة؟

يهدف هذا البحث إلى إجراء تحليل إبستمولوجي للأفكار التي تناولها (فوكوياما) في قراءة نقدية لمضامين كتاب "نهاية التاريخ وخاتم البشر"، ودراسة الخلفيات الفلسفية والسياسية لأطروحاته التي استخلصها من الفكر الفلسفي والسياسي الغربي، خاصة (أفلاطون)، (هيجل Hegel) و(نيتشه Nietzsche)، واستنباط النظرية التي يجسدها في طرحه المدافع عن الليبرالية الديمقراطية والرأسمالية الاقتصادية، وقيمة ما يعرضه ويدافع عنه وعلاقته بتوجّهات السياسة الأمريكية في عالمنا المعاصر، ومحاولة نقد وتقييم هذه النظرية على ضوء الواقع والأحداث التي شهدتها العالم بعد ذلك.

نتبع في هذا المقال تركيباً منهجياً يقوم على توظيف الوصف، التحليل، الاستنباط والتفسير، وفق مقارنة نقدية تقوم على التحليل الاستمولوجي للأفكار التي طرحها (فوكوياما) وروج لها الغرب الليبرالي والسياسيون الأمريكيون، وتقديم رأينا الخاص في ذلك، وفق الخطة التالية:

1. الفكرة الأساسية لكتاب "نهاية التاريخ والإنسان الأخير" لـ (فرانسيس فوكوياما).
2. التعريف بـ (فرانسيس فوكوياما) وكتابه حول "نهاية التاريخ والإنسان الأخير".
3. النظرية التي يجسدها طرح (فوكوياما) في كتاب "نهاية التاريخ والإنسان الأخير".
4. نقد وتقييم أفكار (فوكوياما) حول "نهاية التاريخ والإنسان الأخير".

1. الفكرة الأساسية لكتاب "نهاية التاريخ والإنسان الأخير" لـ (فرانسيس فوكوياما)

إن الفكرة الأساسية التي تناولها (فوكوياما) في كتابه "نهاية التاريخ والإنسان الأخير" تدور حول شرعية النظام الليبرالي الديمقراطي الحديث في مقابل الأيديولوجيات المنافسة التي انهزمت كالتسلطية والشمولية، وهو ما يشكل نقطة النهاية في التطور الأيديولوجي للإنسانية والصورة النهائية لنظام الحكم البشري، وبالتالي وصول التاريخ إلى غايته، وتالياً إلى نهايته كمسار تقدمي في اتجاه أهداف تمّ تحقيقها، وقد صاغ (فوكوياما) زعمه هذا حول نهاية التاريخ على أساسين؛ الأول مادي مبني على العلوم الطبيعية الحديثة ونتيجتها التنمية الاقتصادية (فوكوياما، 1993، ص. 79)، والثاني حضاري ومعنوي مبني على الديمقراطية الليبرالية الحديثة، فالأولى هي آلية للتحوّل التاريخي الغائي، ولا يمكن الاستغناء عنها وهي في تطوّر مستمر (فوكوياما، 1993، ص. 86)، وتقود إلى نتيجة مؤدّاها تحقيق التصنيع، ولا يتحقّق ذلك إلا في ظلّ تحقيق النموذج الرأسمالي الاقتصادي، وهو حسب الكاتب أصلح نظام للبقاء (فوكوياما، 1993، ص. 92)، وحتى تلجأ إليه كل الدول بما فيها دول العالم الثالث، رغم أنّ بعضها فشل في تحقيق التنمية الاقتصادية، والسبب يعود إلى تبنيها مبادئ نظرية التبعية ذات الطرح الماركسي (فوكوياما، 1993، ص. 99)، لكنّها رجعت لتتبني نظام اقتصاد السوق. إن الرأسمالية الاقتصادية الناتجة عن العلوم الطبيعية الحديثة تؤدي أيضاً إلى تبني الديمقراطية الليبرالية، لكن الأساس المادي أظهر حسب الكاتب مواطن ضعف وقصور (فوكوياما، 1993، ص. 126)، ليرز الأساس الحضاري والمعنوي كمتّم للأساس المادي، ويشمل هذا الأساس علاقة العمل كإحدى العلاقات الفردية والاجتماعية، هذه العلاقة التي ساهمت في تحرّر الفرد من علاقة العبودية التي تربطه بالسيد (فوكوياما، 1993، ص. 174)، لظهور الحقوق التي طالب بها الناس وأصبحت فيما بعد حقوقاً سياسية أهمها حق المشاركة السياسية، اقترنت بالديمقراطية الليبرالية وقيام الثورة الفرنسية والأمريكية للمطالبة بالحرية والمساواة للجميع، مما جعل الثورة الليبرالية تنتشر على النطاق العالمي بتحوّل العديد من الدول انتهاز الديمقراطية الليبرالية، حيث أصبحت من أفضل الأنظمة السياسية خلال القرن العشرين والغاية النهائية لجلّ الدول في العالم، فلا يمكن عودة الديكتاتورية والشمولية إلى عالم ما بعد التاريخ بعد انتصار الديمقراطية الليبرالية، وهو بذلك استبعد عودة التاريخ إلى نقطة البداية.

يطرح (فوكوياما) الجانب المعنوي على أساس سيكولوجي طبيعي في روح الإنسان، وهو مبدأ الصراع من أجل نيل الاعتراف والتقدير، أسماه الكاتب بـ "الثيرموس Thymos"، واعتبره بمثابة المحرك الرئيسي لمسار التاريخ البشري (فوكوياما، 1993، ص. 143)، كان يعني عند الاغريق الهمة والشجاعة في كتاب جمهورية (أفلاطون) (فوكوياما، 1993، ص. 150)، وله جانب فردي وجماعي، فأما الجانب الفردي فهو نفسي غريزي للإنسان يدفعه إلى الصراع العنيف من أجل المنزل الخالصة، وقد صوّره الكاتب في قصتين منفردتين، قصة (سقراط) في جمهورية (أفلاطون) وقصة (فاكلاف هافيل) (فوكوياما، 1993، ص. 150)، وأما الجانب الجماعي لـ "الثيرموس" فيتجسّد في صورة الميجالوثيميا المفرطة أو القومية، حيث اعتبرها سابقا كعائق لبناء ديمقراطية ليبرالية في مجتمع ما (فوكوياما، 1993، ص. 234)، ويضرب الكاتب مثالا عن الجانب الاجتماعي للثيرموس بإضراب العمال ومطالبتهم الإدارة برفع الأجور، وعند انتهاك فرد من العمال إضرابهم هذا يزداد غضبهم أكثر على هذا الشخص من الإدارة، لأنّ هذا الفرد غلبت عليه الرغبة المادية أكثر من كرامته. إنّ الأزمات التي تعرّض لها النظام الشيوعي في مختلف أقطاره لا يرجع فقط إلى اعتبارات اقتصادية مادية، بل ناتجة عن الغضب الجماعي الثيرموسي، ويظهر ذلك في حالة الصين عندما ثار الشباب في مظاهرات عامي 1986 و 1989 من أجل الديمقراطية أكثر، حيث شعر هؤلاء الشباب بالغضب لافتقارهم إلى الصوت المسموع وعدم اعتراف الحزب بهم.

إن مبدأ الرغبة في نيل الاعتراف يشكّل المحرك الأساسي لتحول البشرية نحو الديمقراطية الليبرالية الحديثة، وبالتالي إلى نهاية التاريخ في ظلّ عدم التصادم وعدم التناقض وتحقيق الرضا، غير أنّ الإفراط في هذا المبدأ قد يؤدي إلى احتمال تغيير مسار التاريخ نحو النظام التسلّطي بدل الديمقراطية، وهو ما سماه الكاتب بـ "الميجالوثيميا" (فوكوياما، 1993، ص. 165)، أو نيل الاعتراف بالتفوّق على الآخرين، مثل الطاغية الذي يغزو شعبا مجاورا ويستعبده يعترف بسلطته، ومعالجة هذه المشكلة يكون بتدريب الثيرموس في الطريق الصحيح والسليم.

إن الدولة المتجانسة التي تجسّد النموذج الديمقراطي الليبرالي المعاصر الذي حقّق الغاية المتجسّدة في الرغبة، العقل والثيرموس، أي الأساس المادي المتمثّل في الرغبة وهو الجانب الاقتصادي، والعقل المتمثّل في الأساس الحضاري، والثيرموس المتجسّد في الأساس المعنوي (فوكوياما، 1993، ص. 180).

يظهر الكاتب تخوّفه من بروز القومية في عصر ما بعد انقضاء أمد الشيوعية (فوكوياما، 1993، ص. 234)، لكنه يبيّن أنّ ذلك ما هو إلا مرحلة تاريخية عابرة، تسقط بانتصار الديمقراطية الليبرالية التي تشكّل النظام الأكثر اتّساقا وعقلانية من القومية المجسّدة لنظرة الميجالوثيميا أو الاعتراف غير المتكافئ القائم على التفوّق، ويؤدي في الأخير إلى خلق سوق عالمية موحّدة ومتكاملة في النظام الرأسمالي العالمي، ويؤكد الكاتب في هذا السياق بقاء المظهر الثيرموسي في صورة الميجالوثيميا سائدا في العالم رغم انتشار الديمقراطية الليبرالية عب العالم بشكل متزايد، غير أنّ هذا الثيرموس انحسر وتراجع بين الأفراد أو الجماعات أو في العلاقات الدولية.

لقد ساهمت الديمقراطية الليبرالية المعاصرة في وصول الإنسان إلى مبتغاه وهو نيل الاعتراف، هذا الإنسان الذي يشكّل المخلوق الأخير في نهاية التاريخ، فهو ليس كالإنسان الطبيعي البدائي في الماضي، لأن الديمقراطية الليبرالية حققت له ذلك وأصبح أكثر وضوحاً، وهذا ما يشكّل فعلاً نهاية التاريخ، والإنسان الأخير الذي أكّده (فوكوياما) إنّما هو الإنسان الغربي كطرف فردي من جهة، والنظام الديمقراطي الليبرالي كنظام جماعي من جهة ثانية يجسّدان نهاية التاريخ (فوكوياما، 1993، ص. 262).

يختم (فوكوياما) أفكاره بأن الميجالوثيميا أو الاعتراف بالتفوّق في ظل الديمقراطية الليبرالي المعاصرة قد تحول مبتغاه من تحقيق أغراض استبدادية وحربية إلى غايات تخدم النظام الديمقراطي في شتى المجالات الاقتصادية (التجارة)، السياسية (الانتخابات)، الثقافية والرياضية والفنية، وهو بذلك يؤكّد نظرة (نيتشه) لبقاء الميجالوثيميا في حياة الناس، لكن بصورة مخالفة ومخفّفة، لا تؤدي إلى تغيير مسار التاريخ نحو نظام تسلّطي (فوكوياما، 1993، ص. 273)، إن التاريخ أصبح يتجه نحو وجهة واحدة وهدف واحد بفضل انتشار الليبرالية على النطاق العالمي، وما يبرّر ذلك الشعور العام بالرضا، وعلى هذا الأساس، فإن الديمقراطية الليبرالية المعاصرة توقّر اشباعاً على نطاق أوسع وبشكل متوازن لأقسام الروح البشرية؛ الرغبة والعقل (الجانب المادي والحضاري) والثيموس أو مبدأ الاعتراف (الجانب المعنوي أو النفسي) (فوكوياما، 1993، ص. 285).

2. التعريف بـ (فرانسيس فوكوياما) وكتابه حول نهاية التاريخ والإنسان الأخير

(يوشيهيرو فرانسيس فوكوياما Yoshihiro Francis Fukuyama) مفكر أمريكي ذو أصول يابانية، ولد في يوم 27 أكتوبر 1952 بشيكاغو بالولايات المتحدة الأمريكية، من أبوين يابانيين، نشأ في أسرة محافظة، ودرس الفلسفة السياسية في جامعة كورنيل Cornell university، وحصل على الدكتوراه من جامعة هارفارد Harvard University وكان قد تخصصّ في العلوم السياسية، شغل وظائف ومسؤوليات عديدة منها مدرّساً للاقتصاد السياسي ومديراً لبرنامج التنمية الدولية بجامعة جونز هوبكنز الأمريكية، كما شغل عضوية جهاز التخطيط السياسي لوزارة الخارجية الأمريكية، وعضوية البعثة الأمريكية للمحادثات الإسرائيلية المصرية حول الحكم الذاتي للفلسطينيين عامي 1981 و1982، كما شغل عضوية عدة هيئات كالجمعية الأمريكية للعلوم السياسية ومجلس العلاقات الخارجية وشبكة غلوبال بزنس Global Business (الجزيرة، 2016)، كما اختير عضواً في مجلس إعداد السياسات في الرئيس الأمريكي (جورج بوش الأب George Herbert Bush) عام 1989 بصفته نائب مدير الشؤون العسكرية والسياسة الأوروبية. فضلاً عن ذلك، فإن (فوكوياما) له مؤلفات من أبرزها كتاب "نهاية التاريخ والإنسان الأخير" عام 1992، وكتاب "أميركا على مفترق طرق: الديمقراطية، السلطة، وميراث المحافظين" عام 2006، وكتب آخر منها: "مستقبلنا بعد البشري: عواقب ثورة التقنية الحيوية"، "الفضائل الاجتماعية وتحقيق الازدهار"، "الطبيعة البشرية وإعادة بناء النظام الاجتماعي" و"أصول النظام السياسي".

إن هذه اللّمة عن حياة وشخصية (فوكوياما) توضّح الأساس الأيديولوجي الذي يتبنّاه، والمصالح الغربية والأمريكية التي يمثلها ويسعى إلى خدمتها، إذ يعتبر من المحافظين الجدد في أمريكا، فقد كان أحد موقعي رسالة موجّهة للرئيس الأمريكي (جورج دبليو بوش George W. Bush) عقب هجمات 11 سبتمبر 2001 تدعوه لإسقاط نظام الحكم العراقي آنذاك، غير أنّه تراجع عن مواقفه السابقة وأصبح من المنتقدين للمحافظين الجدد معلنا تنصّله منهم تماما بعد انتقاده عام 2004 الغزو الأمريكي للعراق (الجزيرة، 2016).

يرجع تأليف كتابه "نهاية التاريخ والإنسان الأخير" سنة 1992 إلى مقالة كتبها في عام 1989 في مجلة "The National Interest" بعنوان: "هل هي نهاية للتاريخ؟"، وهي في الأصل ترجع إلى محاضرة ألقاها خلال السنة الدراسية 1988-89 (فوكوياما، 1993، ص. 7)، ونهاية التاريخ يمثل نهاية الحرب الباردة وزوال القطبية الثنائية أو المعسكر الشرقي الشيوعي، وبوادر بروز النظام الدولي الجديد الذي تزعمه أمريكا كطرف منتصر في هذا الصراع، وهو ما يجسده فعلا هذا الكتاب حسب اعتقاد الغرب بصفة عامة واعتقاد (فوكوياما) بصفة خاصة أنه بمثابة نهاية للتاريخ.

لقد جاء هذا الكتاب في مرحلة تاريخية هامة، هي نهاية الحرب الباردة وانتصار المعسكر الديمقراطي الليبرالي، حاول من خلاله الدعوة إلى التخلّي عن ذلك التشاؤم الذي مسّ الغرب، لا سيما النظرية الواقعية التي اقتصرت أصحابها باستمرارية الصراع الأيديولوجي وتوازن القوى في العالم كضرورة لاستقرار الأمن الدولي.

إنّ (فوكوياما) من أصل ياباني، واليابان هي الدولة الوحيدة من الشرق التي تقاسم الغرب السيطرة الاقتصادية على العالم، وهو ذو جنسية أمريكية، القطب الوحيد في النظام العالمي الجديد المسيطر على الشرعية الدولية والاقتصاد العالمي (جودت سعيد وعلواني عبد الواحد، 1996، ص. 187). وقد استمر (فوكوياما) في دفاعه عن طرحه طيلة أكثر من عقد من الزمن بعد إصداره الكتاب، من خلال مسجلاته التي صرّحها إلى صحيفة (لوموند Le Monde) الفرنسية في ماي 1999 (يونس هشام، 2001، ص. 189).

3. النظرية التي يجسدها طرح (فوكوياما) في كتاب "نهاية التاريخ وخاتم البشر"

يمكن أن نستنبط التحليل الذي يجسده (فوكوياما) في طرحه حول فكرة نهاية التاريخ أنّه تحليل تطوّري مركّب، قدّمه في سياق عرض حول رؤى ومضامين فلسفية مختلفة عبر التاريخ، بداية من الفكر الإغريقي، ثم التراث المسيحي الغربي، إلى غاية (كانط Kant)، (هيجل) وشارحه (أليكساندر كوجيف Alexandre Kojève)، وينطلق في تحليل هذا الطرح ليركّز على ما ذهب إليه (هيجل) بالخصوص وشارحه (كوجيف) حول التطوّر التاريخي للبشرية.

إنّ هذا التحليل التطوّري لنهاية التاريخ إنّما هو تجسيد للتدرّج التاريخي للعالم، فالتاريخ الذي يتكلّم عليه (فوكوياما) ليس تلك الأحداث المتعاقبة أكثر من أنّه عملية مفردة، متلاحمة وتطورية، تشكّل في آخر

المطاف نهاية التاريخ، ووفق هذا التحليل التطوّري المتمثّل في شكل خط له بداية ونهاية على أساس التدرّج والتقدم.

فالتقدّم يشمل العلوم الطبيعية الحديثة والتكنولوجيا، ومن ثم فإنّه يشمل التقدّم في المجال المادي أو الاقتصادي، وهو عند (فوكوياما) النظام الاقتصادي الرأسمالي المتقدم، والذي جاء كحوصلة لتراكم المعرفة في العلوم الطبيعية الحديثة والتكنولوجيا.

أمّا فكرة التدرّج فتشمل حركة التاريخ، فالانتقال كان من الحياة البدائية إلى نظام الرق، ثم إلى نظام تسلّطي وشمولي تمثّل في النازية والشيوعية وأنظمة ديكتاتورية في مختلف أرجاء العالم، ثم التحول الأخير الذي قاد للوصول إلى الغاية النهائية والمتمثّلة في النظام الديمقراطي الليبرالي الحديث.

إنّ فكرة التطوّر نجدها لدى بعض المفكرين من أمثال (روستو Rostow)، غير أنّ هذا الأخير ركّز على حركة التطوّر من زاوية أحادية تتمثّل في الجانب المادي الاقتصادي وحده، في حيث ركّز (فوكوياما) على اعتماد عدّة جوانب مادية، حضارية ومعنوية، فأما الجوانب المادية فتتجسّد في النظام الاقتصادي الرأسمالي وفق التطوّر المادي للتاريخ، وأمّا الجوانب الحضارية التطوّر في مجال العلاقات بين الأفراد والجماعات والجوانب السياسية ومبدأي الحرية والمساواة. فالعلاقات بين الأفراد والجماعات تظهر في ذلك التطوّر الحاصل في التنظيمات الاجتماعية في المجتمع التي انتقلت من الحياة البدائية التي كانت تسودها الفوضى إلى التنظيمات القبلية والعشائرية، ثم في الأخير إلى التنظيمات البيروقراطية الحديثة التي تحقّق التنظيم الرشيد للعمل، حيث نتج عنه تطوّر في علاقات العمل بعل انتشار التعليم في الحياة الاجتماعية، وقد قاد ذلك التطوّر إلى النظام الديمقراطي الليبرالي الحديث الذي يكرّس مبدأي الحرية والمساواة. أمّا التطوّر في الجوانب السياسية، فإن الكاتب أبرز مشكلة السياسة عبر التاريخ وهي السعي لحلّ مشكلة الاعتراف والرضا التام للإنسان بعيشه في كنف الديمقراطية الليبرالية الحديثة، وهنا يبرز الجانب المعنوي في التحليل التطوّري الذي اعتمده (فوكوياما) حول نهاية التاريخ.

يرتكز الجانب المعنوي في العلاقات السيكلوجية للإنسان في المجتمع، فالكاتب يرى أنّ الإنسانية منذ البدء كانت تعيش وفق مبدأ الصراع من أجل نيل الاعتراف أو الثمّيوس كمحور أساسي في سيكولوجيا الروح الإنسانية، وقد استسقى هذا المبدأ من (هيجل) واعتبره المحرك الأساسي لتطوّر المسار التاريخي، وهو الذي يقود البشرية إلى نهاية التاريخ، انطلاقاً من التناقضات التي يشكّلها مبدأ الصراع المعنوي إلى غاية النتيجة التي تعتبر كمحصّلة لوصول التاريخ إلى نهايته، وهي الديمقراطية الليبرالية.

إنّ هذا التطوّر عبر التاريخ ينطلق من الصراع من أجل نيل الاعتراف بين العبد والسيد، ليحقّق العبد حريته عن طريق عوامل كالدين المسيحي الذي ساهم في شعو العبد بحريته، ومبدأ العمل الذي حرّر العبد انطلاقاً من الثورة الفرنسية والأمريكية، وبفضلها حقّق العبد حريته، فأصبح عبيد الماضي سادة أنفسهم في ظل وصول البشرية لتطبيق النظام الديمقراطي الليبرالي المعاصر الذي يجسّد نهاية التاريخ الفعلية.

هذا التطور في جميع الميادين يصوره البعض على أنه: "موكب هائل على طول الطريق، بعضها يُجرّ بطريقة حتمية باتجاه المدينة، بينما بعضها الآخر مستقرّ في مخيمات في عراء الصحراء ... وقد تقرّر عربة أو اثنتان إقامة مخيمات دائمة في إحدى مراحل الطريق لترتاح من عناء الرحلة، آخرون سيجدون دروبا بديلة ... الأغلبية العظمى ستصل إلى المدينة، العربات متشابهة مع بعض الاختلافات التي تدلّ على وضعها أثناء الرحلة ... حينها سيقرّ كل عاقل أنّه لا توجد إلا رحلة واحدة ووجهة واحدة" هذه الصورة تشبه سيناريو أحد أفلام رعاة البقر الأمريكية (جودت سعيد وعلواني عبد الواحد، 1996، ص ص. 183-184).

يظهر التحليل المركّب في طرح (فوكوياما) حول نهاية التاريخ من خلال الجوانب النقدية التي يقدمها في كل تحليل ليثبت طرحه، سواء شمل الجانب المادي أو الحضاري أو المعنوي، فيبرز الإيجابيات والسلبيات في كل عملية، حيث يمتدحها في الأوّل ثم يذمّها في الآخر، فالجانب المادي له إيجابيات تحقيق الرفاهية المادية للإنسان وارتفاع مستوى المعيشة وتحقيق معدلات نمو مرتفعة ...، وبعدها يحدّد سلبيات الجانب المادي باعتباره يركّز فقط على الرغبة المادية، التي قد تؤدي إلى النظام غير الديمقراطي، ويستدلّ ببعض البلدان التي يسودها النظام الديكتاتوري رغم أنّها حقّقت نتائج مادية اقتصادية جيّدة، مثل الاتحاد السوفياتي أو بعض الدول الشيوعية في أوروبا الشرقية، ليصل إلى اعتبار أنّ الجانب المادي ليس عاملا حاسما في الانتقال إلى الديمقراطية الليبرالية الحديثة، وهو بذلك قد فنّد آراء مدرسة التحديث والمدرسة الرأسمالية التقليدية التي يتزعمها (آدم سميث Adam Smith).

ثم ينتقل إلى الجوانب الحضارية باعتبارها عوامل أساسية في الانتقال إلى النظام الديمقراطي الليبرالي، لخصّها في عوامل فردية واجتماعية تبرز في علاقات العمل والتنظيمات الاجتماعية ...، لكن بعدها نراه ينتقد الجانب الحضاري ويعتبره غير كاف لتحقيق الديمقراطية الليبرالية الحديثة، فالانتقال من النموذج التقليدي للتنظيمات الاجتماعية القائمة على القبلية والعشائرية إلى التنظيمات البيروقراطية الرشيدة الحديثة بفضل التعليم والدين وعلاقته بمبدأي الحرية والمساواة لها دور مهم في النظام الديمقراطي، لكنّ هذه الجوانب تحمل الكثير من السلبيات، ولا تكفي لتحقيق الانتقال إلى الديمقراطية الليبرالية، مما دعاه إلى إضافة الجانب المعنوي أو السيكلوجي المتمثّل في مبدأ الصراع من أجل نيل الاعتراف أو التيموس إحدى أقسام الروح البشرية، ويؤكد بأنّ مشكلة السياسة عبر الزمن ما هي إلا سعي وراء حل مشكلة الاعتراف والرضا التام للإنسان بعيثه في ظلّ نظام اجتماعي وسياسي يحقّق له ذلك.

إنّ الديمقراطية الليبرالية حلّت هذه المشكلة، لذلك يعتبر هذا العامل بمثابة المحرك الأساسي للتاريخ، وقد أخذه من (هيجل) وأضافه إلى العامل المادي والحضاري السابقين. وهنا تكمن إيجابيات الجانب المعنوي، سواء شمل هذا الاعتراف الفرد أو الجماعة، فإنّه العامل الحاسم في التحوّل إلى الديمقراطية الليبرالية الحديثة. غير أنّ مبدأ الاعتراف أو التيموس لها مظهران؛ مظهر الاعتراف المتكافئ ويتمثّل في الإيسوثيميا، ومظهر الرغبة في الاعتراف بالتفوّق والمتمثّل في الميجالوثيميا، حيث انتقد (فوكوياما) هذا المظهر الأخير واعتبره عاملا يؤدي إلى النظام التسلّطي، وهو ما يشكّل عثرة لتبني النظام الديمقراطي،

مثلما أدى في وقت سابق إلى النزعة الفاشية والنازية في أوروبا وظاهرة الديكتاتوريات في أوروبا الجنوبية وأمريكا اللاتينية، ناهيك على مسبباتها في قيام الحروب بين الدول.

هذه السلبات أدت بالكاتب لأن يقدّم العامل المتحكّم في نزعة الميجالوثيميا المسببة للديكتاتورية والشمولية، ويتمثّل هذا العامل في النظام الديمقراطي، الذي يقوم على مجموعة من القواعد التي تحكم وتضبط هذه النزعة، وهي السيادة الشعبية والقانون، فضلا على أنّها تتضمن قيما عالية وفضائل كالتسامح ... وتسع بدورها إلى تدريب النزعة التيموسية لدى الإنسان، فالثيموس ومظهرها المتجسّد في الميجالوثيميا يعتبر جانبا متأصّلا في الحياة البشرية، ولا يمكن استئصاله نهائيا، وعليه فإنّ الديمقراطية الليبرالية الحديثة سعت إلى تكييف هذا المظهر في مختلف مجالات الحياة الإنسانية، سيما في الاقتصاد (المنافسة وتكافؤ الفرص)، السياسة (الانتخابات والتنافس بطرق سلمية)، الرياضة والفن. وفي الأخير، يعتمد (فوكوياما) العامل التركيبي بين كلّ الجوانب؛ المادي، الحضاري والمعنوي على أساس متوازن لأقسام الروح البشرية من رغبة، عقل وثيموس، يجسّدها النظام الديمقراطي الليبرالي الحديث بشكل يجعل نهاية التاريخ أمر حتمي وغازي.

4. نقد وتقييم أفكار (فوكوياما) حول "نهاية التاريخ والإنسان الأخير"

إن فكرة نهاية التاريخ التي كتب عنها (فوكوياما) ليست الأولى في التاريخ الحديث للعالم، فقد كتب عالم الاجتماع (أرنولد جيلين Arnold Gehlen) مقالا شهيرا نشر عام 1975 بعنوان "Ende der Geschichte?" طرح فرضية نهاية التاريخ، حيث أشار إلى النتيجة النهائية للعملية الابتكارية سواء كانت اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية أو فنية أو غيرها التي ميزت تاريخ العالم البشري، وحسب الكاتب فإن الشركات الصناعية لا تذهب أبعد من أشكالها الحالية، وتبقى ضمن سياق ما بعد التاريخ (Norbert Campagna, 1992, p.53).

قيمة ما يعرضه (فوكوياما) لا تكمن في أطاريحه بقدر ما يعكس خلفية السياسة الغربية، ومن ورائها السياسة الأمريكية في عالمنا المعاصر، وخاصة بعد انهيار الأنظمة الشيوعية (جودت سعيد وعلواني عبد الواحد، 1996، ص. 188). ورغم أن أطروحته تعرّضت لانتقادات كثيرة منذ إصدار كتابه إلا أنّ بعض الأسس الواقعية والتاريخية في العالم تطابقت ما أطروحة "نهاية التاريخ" مثل تحوّل العديد من الدول إلى النموذج الرأسمالي وتراجع الاشتراكية في العالم وعدم صمود كثير من النماذج الفكرية مع نموذج الديمقراطية والرأسمالية في الوقت الراهن (يعيش وسيلة خزار، 2008، ص. 134 - 138). إن (فوكوياما) يعد في انهيار الشيوعية انتصارا لليبرالية الغربية المعاصرة، وهو بذلك يبشّر بنهاية التاريخ، في حيث نجد الماركسية كانت قد بشّرت من قبل بنهاية التاريخ والمجتمع الأخير، عندما جعلت الشيوعية قمة هرم التطوّر الاجتماعي والسياسي للإنسان، ولكّتها أخذت بفكرتها واغترت بها حتى غابت بأسرع ممّا كان يتصوّر أعداؤها (جودت سعيد وعلواني عبد الواحد، 1996، ص. 185)، ولهذا فإن ما توقّعه (فوكوياما)، وربّما يعتقده بصدد نهاية التاريخ ما هو إلا مادة وجد الغرب من خلالها تمرير سياساتهم، لا

سيما الولايات المتحدة الأمريكية. هذا الطرح نجده أيضا لدى صنّاع القرار الأمريكيين من أمثال الرئيس الأسبق للولايات المتحدة (ريتشارد نيكسون Richard Nixon) الذين كان يؤمن أنّ أمريكا بقيمتها وسياساتها تمثل العلم والعدل والحضارة أكثر من أيّ دولة أو شعب آخر، لذلك فإنّه يجد أنّ النزعة الأمريكية للعالم سوف تبقى عنصرا لا غنى عنه عبر العقود القادمة (جودت سعيد وعلواني عبد الواحد، 1996، ص. 189).

إنّ هذه النظرة المتجذّرة في التصرّو الغربي التي عبّر عنها (فوكوياما) من خلال اعتبارها لإنسان الغربي إنسانا أخيرا وإنسانا كاملا، أو من خلال إصرار الغرب على وصايته للعالم غير الغربي، وبهذا التصرّو، فإنّ الغرب لا يمثل مسيحية نقيّة بقدر ما يجسّد ذلك المزيج من التصرّوات اليهودية – المسيحية التي تتداخل مع الفلسفات القديمة للإغريق والتشريعات الاجتماعية والقانونية للرومان (جودت سعيد وعلواني عبد الواحد، 1996، ص ص. 198-199).

إنّ تصوّر (فوكوياما) حول كون الغرب الليبرالي عبارة عن كتلة متجانسة وموحّدة تجمعها القيم الديمقراطية، المساواة والحرية قول فيه مبالغة، فرغم التعاون الذي نلاحظه كثيرا بين الدول الغربية، في الحقيقة ما إلّا تعاون شكلي، لا سيما بين أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، فإذا كانت السياسة الألمانية أو الفرنسية مثلا تشكّل تعاونا مع السياسة الأمريكية، فإنّ أحلام الشعبين الألماني أو الفرنسي أمام الشعب الأمريكي ليس واحدة، فحجم الكراهية الذي يبديه الألمان للأمريكان يفوق كلّ تصوّر، وكذلك بالنسبة للصراع بين أوروبا التقليدية وأمريكا، وإتّما محاولة (فوكوياما) والكثير ممن سار في نهجه ما هي إلّا وسيلة للمّ شمل "شئات" الغرب المخفي (جودت سعيد وعلواني عبد الواحد، 1996، ص ص. 201-203)، والحرب الأمريكية – البريطانية على العراق تبرز ذلك التعارض بين المصالح الغربية وطموح الشعوب الغربية الأوروبية التي عارضت هذه الحرب معارضة شديدة باعتبارها تتنافى وقيم الديمقراطية الحقيقية. ناهيك على أنّ الرأسمالية الاقتصادية التي كان يروّج لها (فوكوياما) بحلّ جميع المشاكل الاقتصادية قادت إلى تدمير البيئة وأفرزت البطالة (Norbert Campagna, 1992, p. 54) وترتّبت عنها معضلات جمة. كما أنّ ما ذهب إليه (فوكوياما) حول أن (هيجل) يمجّد الدولة الديمقراطية الليبرالية الحديثة التي تشكّل نهاية التناقضات، والمسمّاة عند (هيجل) بالدولة الدستورية الحديثة، هو قول أيضا فيه مبالغة، فهناك من المفكرين من يعارض ذلك أمثال (جون بلاميناتز John Plamenatz) في كتابه "الإنسان والمجتمع"، حيث يؤكّد أنّ (هيجل) كان ضدّ الديمقراطية وضدّ الليبرالية بطرق شتى، فرغم "أنّ (هيجل) لم يكن شموليا بالمعنى السيّء لهذا الكلمة، فلا يمكن أن ننكر أنّه قدم دعاوي فاسدة ومتطرّفة عن الدولة" (يونس هشام، 2001، ص ص. 198 - 199).

ونجد (فوكوياما) يستشهد بمشروع (كانط) "السلام الدائم"، في حين يؤكّد على ضرورة حقّ شنّ الحروب لعالم ما بعد التاريخ أو العالم الديمقراطي الليبرالي ضدّ العالم التاريخي أو العالم غير الديمقراطي، وهذا

للحفاظ على حيوية الأنظمة الديمقراطية، وستكون هذه الأخيرة أكثر صحة وراضية أكثر من مجتمع لا يعرف إلا السلام المتواصل، وهو بذلك قد ضرب بمقولة (كانط) عرض الحائط.

وتكمن المفارقة الأخرى في كون (فوكوياما) يؤكد على أنّ السلام سيعمّ كل أرجاء العالم بمجرد تحوّل كل الدول إلى ديمقراطيات ليبرالية، في حين نجده في سياق آخر يؤكد العكس، فالعالم إذا ما تحوّل كلّ إلى ديمقراطيات ليبرالية سيسود فيه ضجر لسكان العالم ذاته، وهو ما يؤدي بهم عندئذ إلى خوض صراع ضدّ هذا السلام والازدهار، وضدّ الديمقراطية نفسها، لمجرّد المتعة والمغامرة والخروج عن الملل (يونس هشام، 2001، ص 207 - 208)، وقد استشهد في ذلك بالمظاهرات التي قام بها شباب فرنسيين ضدّ الرئيس (شارل ديغول) وأطاحوا به، رغم ما كان يتمتّع به هؤلاء الشباب من رفاهية وقسط وافر من التعليم.

يجعل (فوكوياما) من النظام الديمقراطي الليبرالي الحديث والإنسان الغربي يتّصفان بالكمال في ظل نهاية التاريخ، وهو بذلك قد أغفل مبدأي "نسبية الفكر الإنساني" و"التغيّر الاجتماعي"، فالنظام الديمقراطي مهما يشكّل من إيجابيات على مختلف الأنظمة الأخرى كالشيوعية، الفاشية والملكية الوراثية ...، إلاّ أنّه لا يمثل نظاما كاملا وأمثلا خال من العيوب والنقائص، فكيف نفسّر مثلا فوز مرشّح للانتخابات الرئاسية في ظلّ نظام ديمقراطي بنسبة 51% من أصوات الناخبين إهمال 49% من الأصوات الأخرى، فهي عبارة عن أصوات مهمّة ومعتبرة لا يمكن تجاهلها.

كما أنّ نظرية التغيّر الاجتماعي تنفي طرح فوكوياما) للتطوّر البشري ووصوله إلى نهاية التاريخ باعتبارها مرحلة الثبات والاستقرار والسكون الدائم للنظام الديمقراطي، فالتغيّر الاجتماعي ميزة أو خاصية يتّصف بها المجتمع البشري منذ بدايته إلى اليوم، وحتى أنّنا نجد (روجي غارودي Roger Garaudy) يعتبر الغرب عرضا، بل إنّّه أخطر عارض طرأ في تاريخ الكرة الأرضية، وقد يقودها اليوم إلى فناءها، ويقول ممّدا لرأيه هذا: "إنّ فاوست هو الرمز المأساوي لثقافتنا الغربية ... سيّد العناصر كلّها وربّها. وهذا الشعار سبق بنصف قرن، وعد ديكارت بعلم يجعلنا سادة الطبيعة ومالكها" (جودت سعيد وعلواني عبد الواحد، 1996، ص 200).

كما نجد (فوكوياما) يصرّ من خلال طرحه على انضمام كلّ الشعوب في العالم إلى النظام الديمقراطي الليبرالي، لكن في الحقيقة يرفض الغرب ذاتهم انضمام هذه الشعوب، وخاصة شعوب الدول النامية إلى دائرته، وهو في الوقت نفسه يسعى إلى جعل هذه الدول "تابعة" وليست "حليفة"، مثل تركيا التي تريدها أوروبا كذلك، فما تزال تركيا مرفوضة من قبل بروكسل، في حين يسعى الغرب إلى إبقاء تركيا في موقع الرافض لمكّة على حدّ تعبير (جودت سعيد) و(عبد الواحد علواني)، وحتى اليابان الذي حقّق تقدّما كبيرا في المجال الاقتصادي لا يزال بعيدا عن التحالف مع الغرب، والتحالفات الجزئية تبقى دون اعتبارها تحالفا إستراتيجيا شاملا بأنّهم معنى الكلمة (جودت سعيد وعلواني عبد الواحد، 1996، ص 190-192). وعلاقة التبعية هذه كان قد تكلم عنها (نعوم تشومسكي Noam Chomsky) في نقده لسياسة الغرب

تجاه الشعوب الأخرى، حيث اعتبر هذه الدعوة بمثابة أنّ الأمريكيان هم سادة العالم والباقيون هم ماسحوا أحذية (جودت سعيد وعلواني عبد الواحد، 1996، ص. 191).

إنّ الفكرة التي يعبر عنها (فوكوياما) التي تعتبر الغربي إنسانا كاملا والغرب وصيّ على العالم إنّما هي فكرة مصدرها يهودي امتزجت بالفكر الغربي المسيحي، فهي تركّز على أنّ اليهود هو شعب مختار ومميّز على مرّ الأزمان بسبب العهد الذي قطعه الله على نفسه لإسرائيل كما ورد في (سفر التثنية) في الآيات 6-8 من العهد الجديد: "فانتتم شعب مقدّس للرب إلهكم الذي اختاركم له من بين جميع الشعوب، لا لأنكم أكثر من جميع الشعوب، فانتتم أقلّها، بل لمحبتّه ومحافظةه على اليمين التي حلفها لأبائكم" (سعيد جودت وعبد الواحد علواني، 1996، ص. 197-198).

• الخاتمة:

ما يمكن قوله من خلال هذا البحث أنّ كتاب (فوكوياما) يحمل العديد من الملاحظات وبعض التناقضات سجّلها الكثير من المفكرين والعلماء الغربيين ذاتهم، من أمثال (نعوم تشومسكي) و(روجي غارودي) الذي أعلن إسلامه وغير اسمه إلى (رجاء)، يبيّن لنا نسبية الفكر الإنساني ومحدوديته أيّا كان وفي أيّ زمان كان، وهي ترويج لفكر العولمة التي بدأت تبرز كمفهوم في تلك الحقبة الزمنية آنذاك، فقيم الديمقراطية قيم سامية حسب (فوكوياما)، لكنّها في الواقع الغربي عموما والأمريكي على وجه الخصوص هي قيم خاضعة للمصلحة البراغماتية أو المنفعة العملية، والتي كثيرا ما تصطدم مع قيم الحرية، الأخوة، التسامح والمساواة، والحروب التي شنتها أمريكا إلى جانب حلفائها الغرب خاصة بريطانيا على بعض الدول ومنها العراق على حساب قتل وتشريد الملايين من الأفراد تجسّد هذا التناقض، فالأهداف الحقيقية للغزو تظهر الجانب البراغماتي التي تسعى إليه الولايات المتحدة وحلفائها، وهي غاية المكاسب المادية البحتة المتجسّدة في النفط، ناهيك على أنّ الإنسان الأخير أو الكامل الذي ينادي به (فوكوياما) لم يتحقّق فعلا على أرض الواقع، والإنسان الغربي لا يجسّد ذلك، فهو يعاني من فراغ معنوي روحي رهيب يدفعه أحيانا إلى الانتحار، وهذا شائع كثيرا في سويسرا، النرويج وحتى الولايات المتحدة الأمريكية. إنّ أطروحات (فوكوياما) جاءت في فترة زمنية بعينها لتبرز الضربة الأمريكية للعراق في حرب الخليج الثانية، وهذا عندما أكّد على حق الدول الديمقراطية في شنّ حروب من حيث إلى آخر حتى تضمن صحّتها واستمراريتها ورضا الشعب عنها.

إنّه لا يمكن التنبؤ بنهاية التناقضات في ظلّ النظام الديمقراطي الليبرالي ومنه الأمريكي بصفته يشكّل النموذج لنظام كامل خال من العيوب والتناقضات، فالكثير منها ظاهر على المنظومة الرأسمالية الليبرالية والمجتمع الغربي عموما والأمريكي خصوصا، تناقضات على مستوى الاقتصاد الرأسمالي القائم على الاستغلال، وارتفاع مستوى الفقر والتميش والبطالة والتشرّد، تناقضات تؤكّدها المعلومات على أرض الواقع ويفصح عنها علماء ومفكرون غربيون ذاتهم.

رغم الجدل الذي أثاره هذا الكتاب، والانتقادات التي طالت مضامينه، إلا أنه يشكّل محاولة فكرية مميزة في مجال الفكر السياسي الغربي لإنسان أمريكي له تصوّراته وآراؤه الخاصة، خاصة أنّ بناءه الفكري والنظري جاء متناسقا لبلورة فكرة انتصار الديمقراطية الليبرالية الحديثة على النظم التي كانت تنافسها آنذاك خلال الصراع الأيديولوجي بين الشيوعية والرأسمالية، فضلا على أن بعض الأسس الواقعية والتاريخية تطابقت ما أطروحة "نهاية التاريخ" مثل تحوّل العديد من الدول إلى النموذج الرأسمالي وتراجع الاشتراكية في العالم وعدم صمود كثير من النماذج الفكرية مع نموذج الديمقراطية الليبرالية الحديثة.

المراجع:

الكتب:

- فرانسيس فوكوياما. (1993). نهاية التاريخ وخاتم البشر. ترجمة: حسين أحمد أمين. الطبعة الأولى. القاهرة. مركز الأهرام للترجمة والنشر.
- سعيد جودت وعبد الواحد علواني. (1996). الإسلام والغرب والديمقراطية. الطبعة الأولى. دمشق. دار الفكر المعاصر.

المجلات:

- هشام يونس. (2001). عشر سنوات على نهاية التاريخ. مجلة شؤون الأوسط. العدد 101. بيروت. مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق. ص ص. 189-214.
- يعيش وسيلة خزار. (2008)، نهاية التاريخ: فرانسيس فوكوياما نموذجا. مجلة العلوم الإنسانية. المجلد ب. العدد 30. ص ص. 127-144.
- Norbert Campagna. (1992). La Fin de l'Histoire et le Dernier Homme. Forum Nr. 137. pp. 53-54.

المواقع الالكترونية:

- شبكة الجزيرة الإعلامية. (2016). فرانسيس فوكوياما.. نهاية التاريخ بداية الشهرة. ضمن الرابط التالي:
<https://bit.ly/3GcbFVF> (تاريخ التصفح : 2021-10-15)